المنطلق الأساسي في

التاريخ الإسلامي



تأليف

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بيروت

دار النفائس

الرياض

المنطلق الأساسي في التاريخ الإسلامي

تأليف

محمود شاكر

المكتب الإسلامي
بيروت

دار النفائس
الرياض

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيا: إسلاميا

دار النفائس للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٩٣ — ص.ب: ٥٣٥٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

كتب في تاريخنا مؤرخون غير ملتزمين إسلامياً، وتعّرض له أدباء، فذكـر هؤلاء وأولئك أحـداثاً تـوصّلوا إليها من خـلال تعليلهم التـاريخي المُـجّـرد أو تحليـلهم الأدبي الـبحـت، أو خطرت على بالهم دون بحثٍ، فكانت أحداثاً غـير صحيحةٍ، غير أنها شاعت، وانتشرت، وتنـاقلتها الأقـلام حتى أصبحت حقيقـةً لا يُناقش فيهـا، أو بدهيـةً لا تحتاج إلى **برهانٍ، ويُبنى** عليها فتكون النتائج غلطاً إذ مـا يُبنى على غلطٍ يكـون غلطاً، وقد تكون هذه النتائج خطيرةً حتى ليتغيّر معها المجرى العـام للتاريخ، والعـبر التي يستفاد منهـا، وبدلاً من أن تكـون عبراً تهدي إلى خيرٍ، وفكرٍ صحيحٍ، وطريقةٍ سليمةٍ نجدهـا تُؤدي بـالناس إلى تغيـير بالمفـاهيم وتبـديـلٍ بـالأفكـار، وتُؤدّي إلى أخطار.

إن المهندس لا يستطيـع أن يُقيم بناءً إلا إذا درس الأرض التي يُقام عليها، والتربة، والمياه الجوفية و. . . . وإن الطبيب لا يستطيع أن يُعطي العلاج الناجع إلا إذا سـأل المريض عـما ينتابه وعن طعامه وشاربه و. . . . والمُؤرّخ لا يمكنـه أن يذكـر خبـراً من عنـده يتـوصّـل إليـه، ولا يُحلّل نصـاً دون معـرفـة

منطلقات الأمة (العقيدة وما ينبع عنها من مفاهيم وقيمٍ ومعاني) خوفاً من أن ينجرف المرء وراء الأهواء والتحليلات الخاطئة التي تجرّ إلى مُغايرةٍ تامةٍ للواقع، وبُعدٍ للمفهوم الصحيح، وهذا ما يسعى إليه دائماً أصحاب الأفكار المضادّة.

وإذا كانت انطلاقات الأمم لها دوافعها ولها أهدافها إلا أن بعضها يختلف عن بعضٍ، وإذا كانت أكثر الأمم تُقاتل حباً في القتال وتحطيماً للخصم، وتغزو للتوسُّع وبسط النفوذ، وتنطلق لتستعمر وتسيطر، وقد ترغب في فرض العقيدة وتهديم كل ما يُخالف عقيدتها، وتُفرغ بعض الحقد الذي شُحنت به مدةً طويلةً من الزمن. أما الأمة الإسلامية فتختلف عن هذا كله فهي تنطلق لتزيل الظلم القائم في الأرض أينما كان محلّها، ولتفسح المجال لاعتقاد الناس ما يشاءون دون الشرك، بعد فتح الباب للتعبير عن آرائهم، وأفكارهم، وتبيان عقائدهم، وإعطائهم الحرية في ذلك، وهذا ما يُعرف بالجهاد الذي يمكن تلخيص غايته برفع الظلم، وإزالة الطواغيت، وإعطاء حرية العقيدة.

ويُمثّل الخليفة الأمة في منطلقاتها ويُعدّ راعياً لها، كما يُمثّل ذلك كل راعٍ في رعيته، الوالي في ولايته، وقائد الجيش في جنده، والمدير في دائرته، والوالد في أسرته، والأم في بيتها. الخليفة إمام المسلمين في الجامع ومُصلّى العيد، ومرجعهم

وخطيبهم، وهو الـذي تؤول إليه أمـور الشرع فيُعطي رأيـه، والوالي إمام رعيته في ولايته ومفتيهم، والقـائد إمـام جنده في كل ميدانٍ حلّوا به، ويُسأل فيما يحتاجـون إليه من أمـور الفقه وشؤون الحياة.

ولما كانت قـراءة القرآن بـاللغة العـربية والصـلاة لا تصحّ دونها لذا فإنه وجب على الإمام أن يعرف العربية ليُتقن قـراءة القرآن ويُحسن نطق مخارج الحروف، والقائد العسكـري إمام جنده فعليه من الواجبات ما على بقية الأئمة من اتقـانٍ لقراءة القرآن ومعرفةٍ للعربية.

لم تنطلق الفتوحـات أيام رسـول الله ﷺ، خارج الجـزيرة العربية، وبالتالي فـإن القادة والجنـد إنما هم من العـرب، بل والأعـداء أنفسهم من العرب ذاتهم، وإنمـا كانـوا مشركين لا يدينون دين الحق، ولـذا قاتلهم المسلمـون لينقذوهم ممـا هم فيه من الشرك والضلالة.

وانطلقت الفتوحات الإسلامية أيام الخلفـاء الراشـدين من جزيرة العرب إلى الجهات كلها، وما دام الانـطلاق من أرض العـرب فالأمـر طبيعي أن يكون القـادة منها، بـل لا يـوجـد غيرهم ليتسلّم القيادة، ماداموا ينطلقون من أرضهم، وتتـوفّر فيهم الصفـة المطلوبـة من القائـد في معرفـة العـربيـة وقـراءة القرآن لإمامة الجند، وإن وجد أحد من غيرهم إلا أنه يكـون قد عاش في أرض العـرب فأتقن لغتهم، ودخـل في الإسلام

فأجاد قراءته ومعرفة أحكـامه، ويمكن أن نعـطي مثلاً سريعـاً على ذلك سلمان الفارسي، رضي الله عنه، الـذي أوكلت إليه بعض مهـمات القيادة في المـدائن، مادام قـد تعلّم العـربيـة، ودان بـالإسلام فيمكنـه القيادة وإمـامة المسلمـين، وهو فـوق ذلك يعرف الفارسية لغة الذين يتـولّى أمر مـدينتهم، فيمكنه تعليمهم ولا يحتاج إلى ترجمان بينه وبينهم.

وبعد عصر الخلفاء الراشدين توالت الدول الإسلامية.

الدولة الاموية

كانت قد فتحت مناطق كثيرة خارج جزيرة العرب أيام الخلفاء الراشدين، ودان أهلها بالإسلام، ولكن لم يكن الوقت كافياً لهم كي يتعلّم هؤلاء المسلمون الجدد اللغة العربية عندما قامت الدولة الأموية، كما لم يكن لديهم متسع من الوقت ليتقنوا قراءة القرآن ويحفظوا بعضه، وهذا بشكلٍ عامٍ، إذ ربما نبه بعضهم، واستطاع أن يتقن ذلك وخاصةً في أواخر العهد الأموي حيث كانت قد انقضت مدة كافية من الزمن مكنت بعض النابهين أن يصلوا إلى هذه الدرجة، وربما كان حرص آبائهم على ذلك قد ساعدهم في سرعة الاتقان أمثال طارق بن زياد، وقد يكون قد تسنّى هذا لغيره أيضاً.

وعندما أراد الأمويون اختيار القادة للفتح لم يجدوا أمامهم سوى العرب تتوفّر صفة إمكانية الإمامة والخطابة ومعرفة الأحكام فالأمر الطبيعي أن يختاروا القادة منهم، بل لا يمكنهم غير ذلك لو فكروا فيه، ليكون قادتهم على معرفة بالعربية، واتقان لقراءة القرآن، ومن هذا الاختيار الملزمين به عقيدةً،

المجبرين عليه حكماً اتُّهموا بالتعصّب للعربية وتقريب أبنائها وإبعاد غيرهم وخاصةً الفرس.

ولكننا لو تأملنا في هذا الاتهام لوجدناه باطلاً فالأمويون لم يختاروا أحداً للقيادة من سكان البلدان المفتوحة لا من الشام، ولا من العراق، ولا من مصر لأنه لا تتوفّر فيهم صلاحية القيادة شأنهم في ذلك شأن فارس فلماذا هذا التركيز على الفرس؟ ويبدو أن هذا الاتهام حديث بدلالة أنهم يعدّون الشام، ومصر، والعراق بلداناً عربيةً على حين كانت في تلك الأيام غير عربية، وإن كانت بعض القبائل العربية تتنقّل في جنوبي الشام والعراق أما أغلبية السكان فغير ذلك وكانت مصر والشام تتبعان دولة الروم على حين تخضع العراق لدولة الفرس.

اتهم أعداء الإسلام الأمويين بالتعصّب للعربية، وأنهم لم يلتزموا بالإسلام الذي يأمر بالمساواة بين الشعوب، وأنما أخذوا العصبية شعاراً لهم، فكان هذا الاتهام أكبر هجومٍ عليهم، وأفتك سلاحٍ اتُّخذ ضدّهم. وفي الوقت الحاضر أخذ دعاة العصبية القومية هذا الاتهام من أعدائهم بغباء، فردّدوا: إن الأمويين في الماضي قد انتبهوا إلى الرابطة القومية، وعملوا بها تاركين بعض ما جاء به الإسلام، وذلك لما عرفوا ما للرابطة القومية من أهميةٍ تفوق رابطة الإسلام.

وشاع بين الناس جميعاً أن الدولة الأموية عربية، وأصبح

الموضوع كأنه حقيقة يستشهد به الكتّاب، ويعتمد عليه المؤرّخون، ويُردّده العامة، ويقصد من هذا الاصطلاح أنها قومية تعتمد على العنصر العربي، وترتكز بمبادئها على العنصرية، وفي هذا الاتهام ليس طعناً بالأمويين فقط وإنما بالفكر الإسلامي أيضاً، فيه طعن بالأمويين حيث يعني بعدهم عن الإسلام الذي كان هو عماد الأمة ومنهج الدولة، ولو كان ذلك وكفى لما ضرّ كثيراً ويمكن للإنسان أن يسكت، فيقول: أسرة سيطرت على الحكم، وجعلته ملكاً، ولم تتقيد بتعاليم الإسلام، ولكن القصد أبعد من ذلك بكثير إذ يهدف الكلام إلى أن الإسلام لم يُطبّق إلاّ في مدةٍ محدودةٍ هي عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، ثم حدثت خلافات بين أنصار المحافظة على الإسلام ومبادئه مُمثّلةً في الخليفتين عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، اللذين ذهبا شهيدين وبين أصحاب رأي الانفتاح على العالم المتمدين وحضارة الفرس والروم، ونتيجة الصراع بين هذين الفريقين انتصر أصحاب فكرة الانفتاح، وقامت الدولة الأموية على هذا الأساس، وأخذ التخلّي عن الإسلام يظهر تدريجياً، وتفصم عراه عروةً بعد أخرى، وسار الأمويون في الركب العالمي المادي معتمدين على العنصر بعيدين عن الفكر الإسلامي. .

وزعم الأعداء نتيجة هذه الأفكار التي ألقاها الخصوم تُهمةً وردّدها أصحاب العصبيات بغباء أن الإسلام يلائم البيئة

البدوية المغلقة ولا يصلح في الوسط الحضري المنفتح، وقد طُبّق في الوقت الذي كان فيه محصوراً في بيئته التي نشأ فيها، فلما انطلق به أتباعه إلى الأوساط الزراعية المتحضّرة في الشام، والعراق، ومصر، وفارس لم يصلح لها فتخلّى عنه أبناؤه، وكان أول الذين تخلّوا عنه المسؤولون عنه القيّمون عليه من الحكام الذين هم بنو أمية. وإذا كان الإسلام لا يصلح للبيئة الحضرية في ذلك العصر فكيف يصلح للمدنية المعاصرة التي تطورت تطوراً رهيباً في ميدان العلم والتجربة، وأخذت التقنية دورها العظيم. وما دام لا يصلح ولا يمكن أن يصلح فإن الدعاة إليه اليوم مخطئون كل الخطأ، وهم سبب تخلّف المسلمين والوقوف في وجه التيار الحضاري، وعملهم ليس سوى إضاعةٍ للوقت وعملٍ رجعيٍ تخريبي. ويجب الوقوف في وجههم وإيقافهم عند حدّهم، وعلى كل مسؤولٍ تقدميٍ الوقوف منهم موقفاً عنيفاً، وبمقدار ما يقف المسؤولون أمامهم بمقدار ما يكونون على درجةٍ من الوعي وتفهمٍ صحيحٍ للحضارة الحديثة. وإذا لم يتخذ منهم الموقف الصارم الصلب فإن البلاد ستبقى في حالةٍ من التخلّف والتخبّط.

ويُشارك في هذا التيار نفسه دعاة العصبية القومية وإنما يُردّدون هذا بأسلوب آخر وبطريقة من الغباء إلا أنهم يصلون إلى النتيجة نفسها، إذ أن مجرّد تبنّي هذه الفكرة إنما هو الوصول

إلى هذه النتيجة، ولكن دعاة العصبية لا يريدون سوى البرهان على صحة دعواهم وتحقيق الفكرة العاطفية التي يدعون إليها، بقولهم: إن العرب لم يلبثوا بعد الإسلام بقليل أن تبنّوا الفكرة العربية وأخذوا بمبدأ القومية وتركوا فكرة المساواة بين الشعوب التي جاء بها الإسلام حيث رأوا أن دعوته مثالية لا يمكن تحقيقها، وأنه لا وسيلة في المحافظة على الدعوة والمبادىء الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام، وحماية ما فتحوه من بلدان وما وصلوا إليه من أراضٍ جديدة إلا بالاعتماد على العرب الذين لهم ميزات يختلفون بها عن بقية الشعوب، بل إن هذه الميزات هي التي جعلتهم أهلاً لحمل رسالة الإسلام، وقد وُضعت أحاديث على لسان رسول الله ﷺ، لتأييد هذا، والتي منها: «إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام»[1]. بل ويضمر أكثرهم وهم العرب الذين من غير المسلمين الهجوم على الإسلام الذي تشمل دعوته العالم، ويُسوّي بين الشعوب، وما كانت الدعوة القومية سوى شعارٍ يخفي تحته معاداة الإسلام والحرب الخفية عليه. ومقابل هذا فقد حملت الشعوب الأخرى الدعوة إلى التفاخر بأنسابها وصفاتها فكانت العصبيات القومية التي فرّقت بين المسلمين وشتتت شملهم،

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ رقم الحديث ١٦٣ ص ١٩٤ ـ إصدار المكتب الإسلامي.

غير أن بعض هذه الشعوب لم تتجاوز الفخر بنفسها وبقومها، واحترمت العرب، وقدّرت مكانتهم لكون رسول الله ﷺ، منهم، ولنزول القرآن الكريم بلغتهم، ولكن بعضها الآخر أي رجالاً منهم ولا نستطيع، بل لا يصحّ أن نقول جميعهم قد حرصوا على الحطّ من شأن العرب لرفع مكانة قومهم، وكانت الشعوبية.

القادة

ولعل طارق بن زياد من القادة المسلمين الذين تحدّث عنهم المؤرخـون من جانب الأدب فقط **أو من** جـانب القيـادة فقط فـوقعـوا في أخـطاء كبيـرةٍ لأنهم لم يبحثـوا عن المنـطلقـات العقيدية.

١ ـ خطبة طارق:

قالوا لا يمكن أن يقولها رجل بربري، لم يمض على **إسلامه** إلا قليلاً ولم يُخالط العـربَ إلا يسَيراً إذ كـان مولىً لمـوسى بن نصير. ولنذكر الخطبة من أكثر المصـادر إطنابـاً فيها، وأكـثرها إظهـاراً لبيانها، وأوسعهـا تبيانـاً لقوة معـانيها، وهي مما رواه أحمد المقري التلمساني في كتابه «نفح الطيب».

(أيهـا النـاس: أين المفـرّ؟ البحـر من ورائكم والعـدوّ أمـامكم، وليس لكم ـ والله ـ إلاّ الصدق والصـبر. واعلمـوا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبـة اللئام. وقـد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتـه موفـورة، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات **إلاّ** مـا تستخلصونـه من

أيـدي عدوّكم. وإن امتـدت بكم الأيّام عـلى افتقـاركم ـ ولم تُنجـزوا لكم أمـراً ـ ذهبت ريحكم، وتعـوّضت القلوب من رُعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذلان هذه العاقبة من أمركم بمُناجزة هذا الطاغية، فقـد ألقـت به إليكـم مدينته الحصينـة، وإن انتهاز الفـرصة فيـه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحـذركم بأمـرٍ أنا عنـه بنجوةٍ، ولا حملتكم دوني عـلى خطةٍ أرخص متـاع فيهـا النفـوس. أبـدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم عـلى الأشقّ قليلاً استمتعتم بـالأرفه الألـذّ طويـلاً، فلا تـرغبوا بـأنفسكم عن نفسي، فـما حـظّكم فيه بـأوفر من حـظّي. وقد بلغكم مـا أنشـأت هـذه الجزيرة من الخـيرات العميمة. وقـد انتخبكم الوليـد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربـاناً، ورضيكم لملوك هـذه الجـزيرة أصهـاراً وأختـانـاً، ثقـةً منـه بـارتيـاحكم للطعـان، وسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله عـلى إعلاء كلمتـه وإظهار دينـه بهذه الجـزيـرة، وليكـون مغنمهـا خالصـةً لكم من دونه ودون المؤمنـين سـواكم، والله تعـالى ولي إنجـازكم عـلى مـا يكـون لكم ذكـر في الـدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وإني عنـد ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القـوم «لذريق» فقـاتله ـ إن شـاء الله تعالى ـ فـاحملوا معي، فإن هلكت بعـده فقد كُفيتم أمـره، ولم يعوزكم بـطل عاقـل تسندون أمـوركم إليـه، وإن هلكت قبـل وصولي إليـه فـاخلفـوني في عـزيمتي هـذه واحملوا

بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله).

قالوا: إن طارقاً بربري حديث الاستعراب لا يمكنه أن يقول مثل هذه الخطبة ارتجالاً، تذكّروا هذا ونسوا أن أباه هو الذي استعرب، وهو مسلم أصلاً، ونشأ طارق في وسط عربي عند موسى بن نصير. قالوا هذا، ونسوا أهم نقطة، وهي كلمة الفصل، وهي أن طارقاً قائد الجيش، وإمامهم في الصلاة، وخطيبهم في الجمعة والأعياد، وفي كل ميدانٍ يقتضي فيه الحديث والكلام، وهذا واجب على قائد الجيش، ولا تصحّ إمرة من لا تتوفّر فيه هذه الصفات إذ فيها مخالفة للمنطلقات الإسلامية. ولا يمكن لموسى بن نصير أن يختاره للقيادة إذا كانت لا تتوفّر فيه هذه المؤهلات، وهو أدرى الناس به.

وأغرب من هذا أن يقول أحدهم: **كيف تكون هذه خطبة** لقائدٍ أكثر جيشه من البربر، وأن يرتجلها ارتجالاً. وهل خطيب الجمعة يتكلّم بالعامية **إن** كان أكثر الحضور من العامة؟ وهل يصعب عليه أن يرتجل خطبة كهذه وهو خطيب الجمعة والأعياد وقد تمرّس على الكلام والارتجال؟

تكلم الأدباء عن بيان الخطبة وأسلوبها، والعصر الذي وُضعت فيه، وعدم إمكانية طارق بن زياد البربري الحديث بالعربية أن يقول مثلها، وكتب المؤرّخون عن شبهها بأساطير كثيرةٍ عندما يكون النصر كبيراً إذ لم يكن جيش المسلمين

ليزيد على اثني عشر ألفاً على حين كان جيش القوط يزيد على المائة ألف، وقالوا: إن الفرس عندما دخلوا اليمن بقيادة (وهرز) مع سيف بن ذي يزن قد نسبوا لقائدهم مثل هذه الخطبة، كما نسبوا له إحراق السفن. وأن الإسبان عندما دخلوا المكسيك مستعمرين نسبوا لقائدهم قولاً مثل كلام طارق، كما قالوا: إنه أحرق السفن. كما تكلّموا عن تأخّر المؤرّخين الذين نقلوها، وعدم ذكرها عند المؤرخين الأقدم زمناً، قالوا كل هذا، وناقشوا كل ذلك ولكن لم يتحدّثوا عن أهم نقطة وهي أن طارقاً كان إمام الجند وخطيبهم، فليس غريباً أن تكون هذه الخطبة من كلام طارق بن زياد الذي مارس الإمامة والخطابة.

٢ ـ إحراق السفن:

انطلق المسلمون إلى البلدان فاتحين، انطلقوا بروحٍ إسلامية مجاهدين، وعلى هذا فإن ما يُنسب إلى قادتهم إنما يُنظر إليه ويُحلّل من وجهة نظرٍ إسلامية، فإن انسجمت تصرفاتهم مع منطلقاتهم فهذا الأمر السليم، وإن اختلفت دُرست المخالفات حسب المنطلقات لتعرف أكان صحيحاً ما نسب إليهم أم كذباً وافتراءً، لا شك قد تقع أخطاء فما من إنسان بعد الرسل بمعصوم، ولكن تُعرف مثل هذه الأخطاء وتشتهر لأن القادة يسألونهم عنها، والخلفاء يُحاسبونهم عليها حتى ولو كانت تهمةً أو شائعةً فيُبررون هم بأنفسهم تصرّفاتهم، أو يلقون العقاب فقد سُئل خالد بن الوليد،

رضي الله عنـه، وكان تصرّفـه في كلا المـرتين اجتهـاداً، وهـو اجتهاد في محلّه، وكان تصرّف من تكلّم عنه اجتهاداً، وهو في محلّه أيضاً، وقد سُكت عنه كذلك. وهكذا شأن المسلمين.

ولنرجع إلى قضية سفن طارقٍ، فإنه لم يقم بـإحراقهـا أبداً لا يمكن ذلك ولو فعـل لسُئل وحُـوسب وعُوقب، فـإن عملها يُكلّف الكثـير من المـال، ويستغـرق الكثـير من الـوقت، ولم يُعـرف عن المسلمين الأوائـل إهـدار المـال وإضـاعـة مـا قـد أنشؤوه. وهـذا الأسـاس بـالمـوضـوع والعمليـة، ومـع ذلـك فلنناقش الموضوع منطقياً.

١ ـ لم يقـل طارق أني أحـرقت السفن أو أمـرت بـذلـك، وإنما فهم بعض المتأخرين ذلك من خطبته «أيهـا الناس، أين المفـر؟ البحر من ورائكم والعـدو أمـامكم. . . .» فهمـوا من هذا الكلام أن البحـر وراءهم وليس فيه وسيلة نقـلٍ تنقلهم إلى العدوة المغربية، وهو فهم فيه شيء من السقم.

٢ ـ لم يقـل أحد من جنـده أو مُعاصريـه عن هـذا شيئـاً، وإنما قيلت بعده بعدة قرونٍ.

٣ ـ السفن ليست ملكـاً له ليتصرّف بهـا كيف يشاء، فهي إما ليوليان الذي قدّم للمسلمين **عدداً** منها لنقلهم إلى العـدوة الأنـدلسيـة لفتحهـا انتقـامـاً لنفسـه من ملك القــوط، وإمـا للمسلمين يُحاسبـه على تصرف قـادتهم. فقد سُئـل خالـد بن

الـوليد، رضي الله عنـه، عن إعطائـه بعض المـال لـلأشعث الكندي لما أبـداه من مهارةٍ وتضحيـةٍ في حرب الـروم، وكان العطاء من ماله الخاص، ويقصد السائل وهو أمير المؤمنين أن في ذلك العطاء تبذيراً.

٤ ـ لم يحاسب طارقاً أحد من قادته سواء أكان القائد العام موسى بن نصير أم الخليفـة الوليـد بن عبد الملك، مـع العلم أن طـارقاً كـان مـولىً لموسى بن نصير فليس لـه حقّ التصرّف الذي قد يفعله أبناء السادة المغرورين عند غير المسلمين.

٥ ـ ألا يمكنـه أن يأمـر بالسفن فتعـود إلى العدوة المغـربية فيصل إلى النتيجة نفسها؟ وهذا ما تمّ، وذلك أفضـل من أن يقوم بإحراقها ويخسرها المسلمون.

٦ ـ لا يمكن لقائد واسعُ النظر أمثال طارق أن لا ينظر إلى المستقبـل فيترك جيشـه الصغير في بـلاد الأندلس الـواسعـة، والتي من ورائهـا أوربا تـدعمها، وبـين مخـالب دولـة القـوط الحاقدة المتربعة بالمسلمين التي تنتظر الفرصة لتعمل مخالبها فيهم.

٧ ـ ألا يتوقّع طارق مددٍ؟ وهذا ما حـدث، فعلى أي شيءٍ يُنقل المدد؟ لقد انتقل على السفن نفسها.

٨ ـ من أين جاء موسى بن نصير بالسفن التي انتقـل عليها إلى الأندلس مع بقية الجيش عندما خاف على المسلمين الذين توغّلوا بعيداً داخل الأندلس؟ لقد انتقل على السفن نفسها.

٩ ـ لم تكن عملية إحراق السفن بالطريقة التي تُلقي الحماسة في نفوس المسلمين، لقد عُرف الموضوع عندهم بالتذكير بإحدى الحُسنيين فلا شيء يدفعهم مثل ذلك فهم من أجل هذا خرجوا، ولعلنا نذكر الآن ما قاله عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، في مؤتة عندما رأى المسلمون كثرة الروم حيث كان يزيد جمعهم على مائتي ألف ولم يكن عدد المسلمين ليصل إلى أكثر من ثلاثة آلاف، فتخوّف الناس على الجيش، وأخذوا يدرسون الموقف، وكأن شيئاً قد وقع في نفوسهم، فقال لهم عبد الله به رواحة، رضي الله عنه: «إن الذي تخافون للذي خرجتم تطلبون، والله ما انتصرنا بكثرة ولا بقوة سلاح وإنما بما نحمل بين أظهرنا.....» فتشجّع الناس وأقبلوا.

١٠ ـ إحراق السفن لا يُفيد عندما يقع الهلع في النفوس. وقد كان العرب في الجاهلية وربما بعض الأمم الأخرى إذا خرجوا للقتال أخذوا معهم نساءهم وأبناءهم كي لا يفرّوا خوفاً على النساء والذراري من أن تقع في السبي، ولكن إذا حمي الوطيس، واحمرت الحدق ووقع الرعب في القلوب فرّوا لا يلوون على شيء، وما غزوة حنينٍ بخافيةٍ على أحدٍ إذ وقعت نساء وذراري هوازن في السبي حتى أخلى سبيلهم رسول الله ﷺ، بعد أن جاء أهلوهم أذلّاء راجين العفو. فإذا كانت الذراري لا يلتفت إليها أهلها فهل يهمّ الخائف وجود سفنٍ أو لا؟ إذ لا يُفكّر الخائف إلّا بالنجاة من المأزق الذي

هو فيه، وبعدها يبحث في طريق الوصول إلى المأمن.

إذن:

لم يحرق طارق السفن، وبقيت لدى المسلمين، وانتقل المدد إلى الأندلس عليها، وانتقل قائدهم مع بقية الجيش إلى الأندلس عليها، وقضية إحراق السفن فرية وضعها بعضهم لإبراز فكرة التضحية والإقدام عند طارق، وروّجها أو أسهم في وضعها الذين لهم أهداف بعيدة في تشجيع المسلمين على مخالفة الإسلام، والقيام بمثل هذه الأعمال الانتحارية، وحرمان المسلمين من بعض وسائل الحرب لديهم بالتفريط فيها وإضاعتها.

٣ - طبخ لحوم القتلى:

روى بعض المؤرخين قصةً غريبةً، ومنهم ابن القوطية في كتابه تاريخ «افتتاح الأندلس»، وابن الكردبوس في كتابه **«تاريخ الأندلس» مع أن الأول متهم بالشعوبية واعطاء صفات للقوط تفوق صفات غيرهم من الشعوب، فإن الثاني مولع بإيراد الغرائب والقصص المنسوجة من الخيال. ولننقل ما قاله ابن الكردبوس: «ورحل لذريق قاصداً قرطبة يُريد طارقاً، فلما تدانيا، تخيّر لذريق رجلاً شجاعاً عارفاً بالحروب ومكائدها، وأمره أن يدخل في عسكر طارق، فيري صفاتهم وهيئاتهم، فمضى حتى دخل في محلة المسلمين، فأحسّ به طارق فأمر ببعض القتلى أن تُقطع لحومهم، وتُطبخ. فأخذ الناس القتلى، فقطعوا لحومهم**

وطبخوها، ولم يشكّ رسول لذريق في أنهم يأكلونها. فلما جنّ الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها، وذبح بقرٍ وغنمٍ وجعل لحومها في تلك القدور. وأصبح الناس فنُودي فيهم بالاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده، ورسول لذريق يأكل معهم. فلما فرغوا، انصرف الرسول إلى لذريق، وقال له: أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بني آدم، صفاتهم الصفات التي وجدناها في البيت المقفل، قد أحرقوا **مراكبهم** ووطّنوا أنفسهم على الموت والفتح فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنّوا».

ومن الأمور الغريبة أن يخترع الإنسان قصةً لغرضٍ ما ولا يحبكها بشكلٍ جيدٍ حيث يتركها مُخالفةً للمنطلقات الأساسية التي قام عليها القائد إيماناً بها وإيمان أمته بها، وربما كان ذلك حكمةً كي يفضح الله أمره، ومن الغريب أيضاً أن ينقل بعض الذين يدوّنون الأحداث التاريخية أمثال هذه القصص دون النظر فيها ومن غير البحث في صحتها وإنما يكتفون بسرد الأحداث والقصة على أنها أمور مُسلّم بصحتها، وأغرب من هذا وذاك أن ترد أمثال هذه القصص مباشرةً دون مناقشةٍ، ومن غير تعليقٍ عليها، وأعتقد أنه من الأفضل ألا نورد أمثال هذه القصة ولا نناقشها إلا إذا كانت الكتب لمستوياتٍ معينةٍ.

إن هذه القصة قد وردت إلينا عن طريق غير ثقةٍ إذ ذكرها ابن القوطية وعنه نقلها بعض المؤرخين، وإن هذه القصة

وأمثالها سـواء اتُّخذت وسيلةً للحيلة وإلقـاء الرعب في نفـوس الأعـداء أم لغيره فـإنها لا تصح، لأن تقـطيـع لحـوم المـوتى، والعبث فيها إنما هو نوع من المثلة، وهـو لا يصحّ في ديننـا إذ نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم عنه.

إن أول عملٍ يقوم به المسلمون بعد انتهاء المعـركة وقبـل غسـل السيوف ومسحهـا إنمـا هـو دفن المـوتى سـواء أكـانـوا شهـداءهم أم قتـلى أعـدائهم، ولكن القصـة تـروي أن الجاسوس قـد جاء والجثث لا تـزال مُلقاةً عـلى الأرض، فهل جاء أثناء المعـركة؟ هـل جاء والمسلمـون جالسـين بين القتـلى تنطلق منها الروائح؟ أم.....

ولم تُحدّد القصة هوية الجاسوس زيادة في الغموض، ولكن يستبعـد أن يكون من القـوط لأنه لا يمكن أن يـدخل إنسـان عسكراً لا يعرف لغتهم، ولا يـطّلع على أوضـاعهم، ويجلس ليـأكل معهم في الصبـاح، ولم ينتبه أحـد إليه، إذ لم ينتبـه إلا القائد، فهل جاء يعرض نفسه على القائـد، ويُعرّف بنفسـه؟ غير أن سرد الروايـة يدل عـلى أنه من القـوط إذ تقول: تخـيّر (لذريق) رجلاً شجاعاً عارفاً بالحروب ومكائدها. حيث يعني هـذا أنه يعـرفه حقّ المعـرفة وهـو من جنده وهـذا يستحيل، وهذا ما يُوضّح كذب القصة من أساسها. والمفروض في حالةٍ كهذه إن كانت صحيحةً أن يكون رجلاً من البربـر مُقرّبـاً إلى (لـذريق)، وهذا مـا لا تورده القصـة لأنها غير صحيحـةٍ فلو

ذكـرت ذلك لكـانت أقرب إلى التصـديق، ومع ذلـك فهناك اعـتراض قـوي إذ لا يمكن لـبربـريٍ غـريبٍ أن يـدخــل في مجموعةٍ من الـبربر انتقلوا مجـاهدين وكـل منهم يعرف الآخـر لقلّة عددهم، وكل مجمـوعةٍ يعـرف أفرادهـا بعضهم بعضاً، ويمكن أن يُكشف أمره مباشرةً.

كـانت أخبار المسلمـين تسبق جيوشهم الفـاتحـة، وكـانت أخبار أخلاقهم وسلوكياتهم تملأ المنطقة قبل أن تطرقهـا أقدام الفـاتحين، ويبقى المسلمـون في المغرب أكـثر من أربعين سنـةً وهم في صراعٍ مع الروم، ومع المتعصبين من البربر، وحاكم الأندلس على مقـربةٍ منهم ولا يعـرف عنهم شيئاً، ولـو كانـوا يأكلون لحوم الموتى ويقتاتـون بجثث قتلى حـروبهم لذاع هـذا الخبر وانتشر ولعمّ العالم يومذاك، ولساعد هـذا على الـوقوف في وجههم، ولـو أن القتـلى لا يؤلمهـا تقـطيـع لحمهـا، ولكن يقفون أمامهم لهذه الوحشية. فالقصة عارية عن الصحة تماماً.

لو كانت القصة صحيحةً لكانت مُخالفةً واضحةً من القائد طارق، ولضجّ بها الجند، ووصلت إلى القيـادة بل وإلى أمـير المؤمنين ولسُئل طارق، وحُوسب، ونال ما يستحقّ من عقوبةٍ عـلى هذه المخـالفة لتعـاليم الإسلام ـ إذ ليس غـريباً أن تقـع مخالفة أو يـرتكب قائـد خطأً فهـو ليس بمعصوم ـ، غـير أنه لم يتكلّم أحد في هذه القصة ممن كان في جنـده، أو من الثقة في ذلك العصر، ولم يُسأل طارق، ولم يحدث ما يُشير من قريبٍ

أو من بعيدٍ عن وقوع القصـة. وقد دوّنها فقط ووصلت إلينـا عن طريق غير الثقاة. فالحادثة **مختلقة** لا صحة لها أبداً.

لقـد وضعت القصة من أنـاسٍ يمتّـون إلى القـوط بصلةٍ، وقد هالهم ذلك النصر العظيم، نصر اثني عشر ألفاً على مـائة ألفٍ، فأرادوا أن يُخفّفوا من أثر ذلك النصر، ويجدوا المبررات للقـوط في تلك الهزيمـة المخزيـة بأنـه قد وقـع من الـرعب في نفوسهم الشيء الكثير بالحيلة والخديعة التي لجأ إليهـا طارق، وما كانوا ليُهزموا لولا تلك الحيلة. فنصر المسلمـين كان نصر خديعةٍ ولا نصر قوةٍ وشجاعةٍ وتضحيةٍ وفداءٍ، وهزيمـة القوط لم تكن هزيمة ضعفٍ وخوارٍ وإنما كانت هزيمة حيلةٍ ومكرٍ، ولم تكن تعوزهم الشجاعة ولا الدفاع المستميت عن أوطانهم.

وقـد سايـر بعض المسلمين رواة هـذه القصـة في قبـولها، ونظروا إليها نظرةً ثانيـةً مخالفـةً لنظرة القـوط ومن دافع عنهم وشـايعهم حيث نظروا إليهـا من جانب ذكـاء القـائـد المسلم **ومعرفته** بنفسيـة القوط، واللقـاء بهم بعـد أن زعـزع الـروح المعنوية عنـدهم بإلقـاء الرعب في نفـوسهم، والصدام معهم بهـذه القلّة التي معـه مـع كـثرتهم إنمـا هي نـوع من أنـواع التضحية والفداء، واعتـماداً على الـروح المعنويـة العاليـة عند جنـده في حبّ الجهـاد والنيـل بـإحـدى الحسنيـين، وضعف الـروح المعنويـة عند خصمـه استـطاع إحـراز النصر. وهـذا التحليل أو التعليل غير صحيحٍ لأنه مُخالف للمنـطلقات التي

لا تقبل التمثيل بالأعداء ولا بجثث الشهداء من الأصدقاء، لذا فهي مرفوضة، والقصة غير مقبولةٍ، وهي من وضع الذين أحبوا الدفاع عن القوط بمحاولة إيجاد مبررات لهزيمتهم النكراء.

ولقد كان انتصار المسلمين بإذن الله بما وضع في نفوسهم من روحٍ معنويةٍ عاليةٍ في حبّ الجهاد والاندفاع نحو الأعداء لتحقيق النصر أو لنيل الشهادة، فكتب لهم النصر، وأعطى رتبة الشهادة من استحقّها.

لقد كان قادة المسلمين الأوائل أئمة جندهم وخطباءهم، والمفتين لهم، والمرجع لهم في أمور الدين، لذا فقد كانوا على معرفةٍ بكتاب الله، وسنة نبيه، وسلوك صحابته، وعلى علم باللغة العربية لإمكانية الاستنباط، لذا فإن القادة الأوائل **كانوا جميعاً من العرب ولا يمكن أن يكونوا إلا كذلك، وما** فعله الأمويون من تولية الولاة، وإعطاء القيادات للعرب لم يكن إلا بحكم الضرورة للمحافظة على المنطلقات الإسلامية، ولم يكن تعصّباً للجنس العربي أبداً. ولقد كان طارق بن زياد من أوائل الذين استطاعوا تحصيل هذه المعارف من غير العرب، فأهّله ذلك لتسلّم القيادة وكان أهلاً لها وقد حافظ على المستوى العام للقائد المسلم، ولم يرتكب **مُخالفةً أبداً لا حيلةً ولا جهلاً، فلم يُحرّق سفن المسلمين ويجعلهم يتكبدون خسائر كبيرة، ولم يمثل بالأعداء، وكان خطيباً، ووصلت إلينا خطبته، وهو أهل لقولها ولأمثالها.**

الدولة العباسية

عندما قامت الدولة العباسية كان قد مرّ زمن يزيد على مائة سنةٍ على فتح بلاد فارس ودخول الإسلام إليها، وإقبال الكثير من أهلها عليه، وأخذهم تعلم اللغة العربية على أنها لغة العقيدة التي دانوا بها، وربّوا أولادهم عليها، فنشأ الأبناء على معرفةٍ بأمور الدين واللغة، وهذا ما يُخوّلهم إلى أن يتسلّموا الولايات والقيادات فيما إذا كانوا أهلاً لها من النواحي الأخرى، ولا شكّ فإن فيهم من يصلح لذلك، فمن كان يستحقّ تسلّم قيادةً أو آل إليه أمر ولايةٍ.

ومن الطبيعي أن يتسلّم أمر الولاية أحد أبنائها الذين يصلحون للقيام بهذه المهمة، فإنهم أدرى بأهلها وأكثر خبرةً بطباعهم، ويمكنه أن يسوسهم نتيجة تلك المعرفة، وهم يعرفون قدره، ويُنزلونه المكانة التي يستحقّها، فينصاعون لأمره، ولا يجدون غضاضةً في ذلك، ولا يرون منه إكراهاً على شيءٍ لا يريدونه ما دام منهم، ولا يجدون أنه يُفضّل غيرهم عليهم إذ هو أحد أبنائهم.

ومن الطبيعي أن يتولّى قيادة الجند من يصلح لها من أبناء

المنطقة حيث يعرف ما يشجّعهم على النزال، وما يؤثّر عليهم، وينقادون له وهم يعرفونه، ويعلم قدرهم فيُنزل كل واحدٍ منزلته.

ولما كان الفرس يُشكلون نسبةً كبيرةً من سكان شرقي الدولة الإسلامية فالأمر طبيعي أن يكون أحدهم والي المنطقة وأميرها. وأما غربي الدولة فكان العرب يُشكّلون النسبة الكبيرة من أهلها، والمناسب أن يكون الوالي منهم، وهذا ما **أخذت به الدولة العباسية** من أول أمرها إذ كان عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس المسؤول عن المنطقة الغربية على حين كان أبو مسلم الخرساني مسؤولاً عن المنطقة الشرقية. أما الولاة المحلّيون فكانوا حسب سكان الإقليم إن كانوا عرباً فهم من العرب، وإن كانوا من الفرس فهم من الفرس، وإن كانوا من **الترك كما هو** شأن بلاد ما وراء النهر فالوالي منهم، وربما تسلّم إمرةً بعض أفرادٍ من البربر في بلاد المغرب، وقد لاحظنا أن طارق بن زياد كان منهم، وكان غريباً أن يتولّى طارق قيادة جيشٍ في شرقي الدولة، وينقل من أقصى المغرب إلى أقصى الشرق ليتولّى هذه المهمة وفيها من يحلّ **محلّه من أهلها**.

وقد يوجد إقليم لا يزال أهله بحاجةٍ إلى زيادةٍ في المعرفة والتعمّق بالعلوم الإسلامية وعندئذٍ يُفضّل أن يتولّى أمرهم أحد المطلعين بالعلم، ولو كان من غير بني جلدتهم، وهذا ما كنا نلاحظه في الأقاليم البعيدة حيث نجد أحد المعروفين

بالعلم سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم يتولّون أمر تلك الأقاليم ليُعلّموا أهلها ويُفقهوهم بالدين. والدولة العباسية أخذت في تعيين الفرس في شرقي الدولة، وتعطيهم قيادة الجند، أو تُوكل أمر ولايةٍ من الولايات كشكل طبيعي إذ أصبحوا أهلاً لذلك ما داموا يجيدون اللغة، ويعرفون استنباط الأحكام، وهم من أبناء المنطقة. وكذلك عيّنت في كل منطقةٍ أحد أبناء المنطقة ما داموا أهلاً لاستلام ما يُوكل إليهم، فولاة بلاد ما وراء النهر كانوا من الترك أو الصغد، وكذلك قادتهم، وولاة أقاليم فارس من الفرس، وأمراء الشام من أبنائها، وحكام المغرب من أهل تلك الجهات، وعمالهم على جزيرة العرب لم يتعدوا أبناءها. ولم نجد أنها عيّنت الفرس في جهاتٍ أخرى بعيدةٍ عن أقاليمهم، فلو كانت فارسيةً لفعلت ذلك كما يفعل المستعمرون اليوم حيث يُوكلون إلى أبناء جنسهم الإشراف على البلدان التي يفرضون نفوذهم عليها.

غير أن المغرضين لا يُعجبهم مثل هذا السلوك في الولاية والقيادة فيُحاولون الطعن فيها، ويجدّون في البحث عن ثغرةٍ ينفذون منها للدس، فيبدّلون المعاني ويتكلمون كلاماً يمكن للعامة أن تجد فيه المطعن. فالدولة الأموية طُعن بها، وقيل إنها مُتعصّبة للعرب لأنها لم تولّ غيرهم، وكانت ـ كما ذكرنا ـ مضطرةً إلى ذلك لاقتصار توفّر المعرفة الإسلامية عليهم يومذاك، ولما جاءت الدولة العباسية وعيّنت من غيرهم قيل

إنها دولة فارسية. فما هـو الدواء النـاجع عنـد المغرضـين؟ لا ندري إلا أنهم يبغون الطعن والدسّ وبثّ الأحقاد بين شعوب الأمة المسلمة، وقد استطاع المغرضون الوصول إلى بعض ما يريدون عندما سيطر الجهل، وبرزت قرون العصبية القومية.

وقد ضربت **العصبيات** حجاباً كثيفـاً على عيـون أصحابهـا فلم يروا سوى أطـراف غصونها، أمـا سوقهـا الناميـة في الماء الآسن الضـاربـة جـذورهـا في الـوحـل فلم يـروا منهـا شيئـاً فتمسّكوا بأغصانها فتكسّرت بهم، فقام بعضهم يضرب بعضاً بمـا في يديـه من أغصانٍ مُكّسـرةٍ فتجزّأت الأمـة المسلمة بـين أقوامٍ من أبنائها متصارعين.

يتعصّب أصحـاب العصبية العـربية إلى الـدولة الأمـوية، ويتكلّمـون عن الـدولـة العبـاسيـة، ويُهـاجم الفـرس العهـد الأمــوي بعنفٍ، وحُكّـام الـدولـة العبـاسيـة ويتهمـونهم بالتعصّب، وبشكلٍ عامٍ فالتاريخ الإسـلامي موضـع هجوم من هـذا الجـانب في مــرحلةٍ ومن ذاك الجـانب في مــرحلةٍ، ويقـطف الأعداء الثمـر بـالـوصـول إلى أهـدافهم الخبيثـة إذ يقـولـون: إن التـاريـخ الإسـلامي ليس سـوى صراعٍ عــلى السلطة بين الأطراف المتنـاحرة، ولايمكن أن يُقيم حضـارةً أو تستقيم معه مدنية لأنه وُجد للبدو فـأخذ مكـانه بينهم فـما أن خـرج من بينهم واحتكّ أبنـاؤه مع أصحـاب الحضارات حتى دبّ الخـلاف، وظهرت المتنـاقضات. لقـد قام الإسـلام أيام النبي محمد بن عبد الله ﷺ، وانتشر في عهده في منازل البـدو

داخـل جزيـرة العرب، فلما انقضى عهـده، وانتقـل من هـذه الدار ارتدت الأعراب، واستطاع خليفتـه أن يخضع المـرتدين بالقوة **والعزم**، وأخذ الإسلام ينطلق خـارج الجزيـرة وكاد أن يتفلّت أهله منه لولا الشـدّة التي سار عليهـا الخليفة عمـر بن الخطاب، فلما مات عمر أخذ الصراع يبرز بين الذين يريدون المحافظة على الإسلام مُتمثـلاً في الخليفتين عثمان وعلي وبـين الـذين يـريـدون التفلّت، وانتصر المتحّـررون **فقُتـل** الخليفـة الثـالث، ولم يلبث أن قُتل الخليفـة الرابـع، وتمكّن أصحـاب الاتجاه الثاني، إلا أن الصراعات الداخليـة استوطنت فـزالت الأسرة الأموية ودولتها، وقامت الدولة العبـاسية فكـانت دولاً لا دولةً، وأمماً لا أمّةً، واصطدمت شعوبها بعضهـا مع بعضٍ حتى تآكلت، وضعف أمرهـا، تنتظر من يـأتي ليحتلّ أرضهـا حتى جاء المغول فقضوا عليها. ونـام بعدهـا المسلمون، وقـد تصحـو مجموعـة منهـا لحينٍ، ثم لا تلبث أن تغمض عينيهـا وتـرقد، وقـد تصل ببعضهـا إلى أن تنهض وتحاول لمّ الشعث باسم الإسلام غير أنه لا تُوجد أيّة مُقوماتٍ لقيام الـدولة لـذا تعود **لتترنّح من جديدٍ بعد قيامها** بقليلٍ، واستمـرّ ذلك حتى نهضنا بالعبء **وجئنـا** إلى ديار المسلمـين نأخـذ بأيـديهم نحو الحضـارة وننفض عن أعينهم ما علق عليهـا من غبارٍ. . . . .
ولكن يقف في وجهنا من يريد التمسّك بالإسلام مُحافظةً عـلى الماضي دون أي رصيدٍ فكريٍ، ويستطيع أن يؤثر على العامـة وهـذا ما يحـول دون تطوّر الـدول الإسـلاميـة. لـذا إذا أراد

المسلمون الإسهام في الحضارة العالمية فما عليهم إلا أن يقفوا في وجه هذا التيار المُتزمّت المُعارض للحضارة المعاصرة.

هذا رأي الأعداء بنا وبتاريخنا دوّنوه من حقدهم الدفين على الإسلام مُحاولين استغلال الثغرات في التاريخ الإسلامي والتي سجّلها أهله بأنفسهم. إذا كان الولاة والقادة علماء أقوياء أخذوا عليهم وعلى دولتهم التعصّب ما داموا من شعبٍ مُعين، فإذا كانوا من شعبٍ آخر حمل عليهم أبناء الشعب الأول لأنهم ليسوا منهم، وهكذا أوجدنا لأعدائنا الثغرات. ثم أصبح يتولّى الأمر من ليس له أهلاً فدبّ الضعف وأخذ ينخر في جسم الأمة.

كان لايتقلّد أمر الأمة إلا أهل العلم من الخليفة إلى الولاة إلى ولاة الأقاليم إلى قيادة الجند، وكانوا هم أئمة رعاياهم، وخطباءهم، والمفتين لهم، والمُوجّهين، فكان أحدهم يعرف الحكم، أو ينطق به، ويُطبّقه على نفسه، ثم يدعو الرعية إلى تطبيقه والعمل به، وبذلك ارتفعت مكانة الأمة، وانطلقت تُجاهد في سبيل الله، وتُحرز النصر بعد النصر.

فلما بزغت فكرة العنصرية، ونمت العصبيات القيسية، واليمانية، والعربية، والفارسية، والتركية، والهندية، والبربرية تفرّقت الأمّة، وتقطّعت أوصالها وذهب ريحها، وأصبح كل جنسٍ يدعو ليتسلّم أمره أحد أبنائه دون النظر إلى العلم والفقه، فقاد الأمة جهلاء، فسادوا، وقرّبوا إليهم أمثالهم،

فأصبحت الدولة تنحدر نحو الضعف، وتسير إلى الضياع، ثم أغمضت عينيها ونامت.

أصبح الخليفة مأموماً، والوالي مأموماً، والقائد مأموماً، أصبح يُصدر الحكم فيجده غلطاً، ويسأله العامة فيُجيب خطأً، فإذا صحح له عالم أو انتقده أحد وجد في نفسه شيئاً على غيره، فإذا كان قليل الحظ في الخوف من الله أخذته العزة بالإثم ورفض إلا رأيه وأصرّ على ما قال، وهنا وقع الانفصام وكاد الأمر يصل بنا إلى ما وصل إليه أهل الكتاب الذين سبقونا. وأخذت تُطرح أسئلة، وتُثار تساؤلات حول فصل الدين عن السياسة. وهنا يبدأ الضياع. ويظهر الضعف، وكان هذا في العهد العباسي الثاني.

وهنا لا بدّ من وقفةٍ أخيرةٍ مع أصحاب العصبيات، ولنتساءل ما هو سبب ضعف الدولة العباسية؟ إنه يجيب أصحاب العصبيات جميعاً والذين درسوا التاريخ من خلال ما دُوّن لنا سيطرة العنصر غير العربي على الدولة هو سبب ضعفها، غير أن أقل تأملٍ في الموضوعٍ يُدحض هذا الجواب. فسيطرة غير العرب كان نتيجةً ولم يكن سبباً. فضعف الدولة هو الذي جعلتهم يستطيعون السيطرة عليها، فلو كانت قويةً لما سيطروا، إذن ضعف العرب مكّن غيرهم من السيطرة. إذن فما هو سبب الضعف؟ الواقع أن الضعف قد جاء من ترك ما كان سبب القوة، فالعقيدة كانت الدافع

للقـوة، وسبب التضحيـة والفـداء، وسبب ارتفـاع الـروح المعنوية لـدى المجاهـدين، وهذا كله يؤدي إلى الحماسة وإلى إحراز النصر، وهذا ما يحدث في الجهاد والفتح، وأما بالنسبة إلى داخـل المجتمـع فـإن العقيـدة سبب الـطاعـة والالـتزام، وسبب العمـل والإنتـاج، وسبـب إعـمار الأرض، وسبـب التعاون وتماسك المجتمع، ومعـرفة الحـدود التي يقف عندهـا الأفـراد، وهذا مـا يدعـو إلى بقاء قـوة الدولـة، واستمراريـة هيمنتهـا، ولكن عندمـا نتخلّى عن العقيـدة فإنما نتخـلّى عن العنصر الأسـاسي في بنـاء المجتمـع، والجهـاد فتضعف الأمـة وتسير في طريق التراجع والهبوط.

وسبب الضعف أيضاً هو تسلّم القيادة من قبل عنـاصر لا يحملون منطلقات الأمـة، وهذا مـا يؤدي إلى الفشل وضعف الإدارة الذي يؤدي إلى ضعف الدولة إن الوالي أو القائد يجب أن يكون الإمام والخطيب والمفتي في رعيته وجنده.

إن هناك ثلاثة عناصر تعد فخر الـدولة العبـاسية في جميـع مراحلها وهي:

١ ـ فتـح عموريـة: حيث استطاع جيش المسلمـين الذي أكثره من الأتراك أن يتوغّل في أرض الروم، وأن يفتـح **عمورية** في السادس من رمضان عام ٢٢٣ هـ بقيادة الخليفـة المعتصم، بعد استغاثة امرأة في زبـطرة به **عنـدما** أغـار الروم عليها.

٢ ـ القضاء على القـرامطة عـام ٣٠١ هـ بجيشٍ أكثره من

الأتراك، ومن قبل القضاء على حركة الزنج.

٣ ـ معركة ملازكرت عام ٤٦٣ هـ حيث تمكّن ألب أرسلان السلجوقي من تحقيق النصر على الامبراطور الرومي (ديوجنيس رومانوس) الذي يقود جيشاً يزيد عدد جنوده على مائتي ألف مقاتلٍ، وأن يأسره وبطارقته كلهم، وأمراءه جميعاً الذين معه في الجيش والذين تقاسموا الأرض الإسلامية إذ ساروا وهم على يقينٍ من أنهم سيسحقون المسلمين وسيحتلّون أرضهم، ولم يكن مع ألب أرسلان أكثر من عشرين ألف مُقاتلٍ.

هذه أهم أحداث الفخر في الدولة العباسية، وكانت على يد المسلمين من الأتراك.

وأما أبشع التهم التي وجهت إلى الدولة العباسية فهي:

١ ـ التنكيل ببني أمية، ونبش قبورهم، وإحراق الجثث، والقتل الجماعي، وكانت على يد عبد الله بن علي بن عبد الله ابن عباس الهاشمي القرشي عمّ السفاح والمنصور.

٢ ـ خيانة المسلمين وتسليم بغداد للمغول على يد محمد ابن أحمد الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي.

هذا إضافةً إلى أن حركة محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب المعروف بـ (محمد ذي النفس الزكية) وحركة أخيه إبراهيم قد غيّرتا وجهة نظر العلماء بالدولة

العباسية فبهتت صورتها في نفوسهم، وهذا ما فصم بعض العرا. ويجب أن نعلم أن هاتين الحركتين قد استغلّتهما الرافضة فيما بعد، بعد نشوئها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، واتخذتها وسيلة للطعن بالدولة العباسية.

وإن الصراع بين أبناء البيت العباسي قد قسّم المجتمع، كما حدث أيام الأمين والمأمون ولدي هارون الرشيد، وقتل الخليفة المتوكل بيد الأتراك ولكن بمساعدة ولده.

وهذه أهم أسباب ضعف الدولة العباسية **وكلها** كانت بيد رجالات العرب فأين دعاة العصبية من هذا؟ وما كان من مواضع فخر فقد تمّ على أيدي مسلمين من الأتراك، وليس يعني هذا الحطّ من شأن العرب ـ معاذ الله ـ ولا الرفع من شأن غير العرب عصبيةً وعنصريةً ـ معاذ الله ـ وإنما أقول: في كل شعبٍ عنصر من الخير كثير نماها الإسلام فتسامى، وعنصر من الشرّ ينمو إذ ابتعد عن العقيدة. والشعوب واحدة في نظر الإسلام، والأفراد واحدة، وإنما أكرمها عند الله أتقاها. ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[1]. **ويقول صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».**

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

الخلفاء

إن الخلفية التي لدينا عن كثيرٍ من الخلفاء غير صحيحةٍ، وهي مهزوزة جداً وذلك لأننا أخذناها مما درسنا من كتبٍ ليست بذات ثقةٍ، وكُتبت بأيدٍ مغرضةٍ كانت مُعاديةً للمسلمين الذين تسلّموا الخلافة سواء أكانوا راشدين أم أمويين أم عباسيين. وكثيراً ما وصلت إلينا حياة الخلفاء من جانبٍ واحدٍ وغالباً ما يتعارض مع المنصب الذي يتسلّمه. فالخليفة ليس رجل حكمٍ فقط يجلس في مركز الخلافة يُعطي الأوامر، ويُجيب على الرسائل، يتلقّى التهاني، ويستمع إلى الشعراء يكيلون له الثناء، وهذا الجانب الذي دُوّن لنا وشُوّه أيضاً، وإنما كان الخليفة إمام المسلمين في الصلاة، وخطيبهم في الجمع والأعياد، وقائدهم في الجهاد، والمفتي للخاصة، والمسؤول من العامة، يستنبط من الأحكام، ويُناقش الفقهاء، ويتداول الرأي مع العلماء وهذا الجانب لم يرد إلينا من خلال ما كُتب لنا، ونحن ـ مع الأسف ـ لم نُفكّر فيه أبداً، واكتفينا بما قرأنا، وقرأنا ذلك مُكرّراً في عددٍ من الكتب وعلى مستوياتٍ مختلفةٍ حتى رسخت هذه الصورة في عقولنا بل

ونُقشت في أفكارنا وأصبح من الصعب التخلّص منها.

الدولة الأموية:

لننظر إلى الجانب الثاني جانب مقتضيات منصب الخلافة من الإمامة، والخطابة، والقيادة، ولننظر إلى أحد هؤلاء الخلفاء وليكن يزيد بن معاوية الذي لا تزيد الخلفية لدينا عنه أنه كان من عامة الناس غير مُبالٍ بشؤون الحكم، فلما آل إليه السلطان تسلّمه ولم يُحسن التصرّف به، فوقعت أحداث أساءت إليه، وإلى أسرته، وكانت سبباً في شنّ الهجوم عليه، وعلى آله حتى مات غير مؤسوف عليه هذه النظرة العامة إليه دون الحديث عما بالغ في ذلك مبغضوه. ولكن لننظر إلى مركزه الذي تسلّمه في ذلك العصر الذي يضمّ الكثير من الصحابة، ومعظمه من التابعين، ولنأخذ المرحلة التي سبقت خلافته. لقد أرسله أبوه سنة خمسين للهجرة على رأس حملةٍ كبيرةٍ لدعم المجاهدين الذين يُحاصرون القسطنطينية، لقد سار على رأس الحملة وفيها عدد من صحابة رسول الله ﷺ، أمثال أبي أيوب الأنصاري، وعبادة بن الصامت، وأوس بن شداد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس ابن عبد المطلب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله ابن الزبير رضي الله عنهم جميعاً، فكان يزيد قائدهم، وخطيبهم، وإمامهم فما طعن أحد منهم في قيادته. ولا تكلّم أحد عن إمامته، ولا انتقده أحدهم في خطبته، واستمرت

الحملة مايزيد على ثمانية شهورٍ، ولو طعن أحد في ناحيةٍ من نواحي حياة يزيد أو إمامته أو قيادته أو خطبه لعجّت الكتب بذلك، ولضجّ الرافضة في هذا الموضوع، ولكن لم يحدث شيء.

وجاء عهده بالخلافة واستمر ما يزيد على أربع سنواتٍ، وكان يُمارس خلالها كل ما يُمارسه الخليفة ولم يحدث أي طعنٍ فيه أو انتقادٍ له، ومع هذا فلا نقول: إنه كان الخليفة المثالي، لا، وإنما كان أحد ملوك المسلمين فلا يُحبّ ولا يُسبّ كما قال عنه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فلم تكن أيامه فجوراً فيُسبّ، ولا أيام عدلٍ ورخاءٍ فيُحبّ، ولم تنطلق في عهده الفتوحات فيُثنى عليه. وإنما كان ملكاً عادياً، وقد وقعت في عهده حادثتان كان لهما أكبر الأثر في توجيه اللوم عليه وانتقاده وهما: حادثة كربلاء التي استُشهد فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما، ووقعة الحّرة ودخول المدينة المنورة من قبل جنده، وإذا كان بعضهم يحمل المسؤولية للقادة لصعوبة الاتصال معهم في تلك الأيام إلا أنه كخليفةٍ يتحمّل القسط الأكبر من المسؤولية، ولكن لا نُغالي في الكلام عنه كما تفعل الرافضة.

وكما طُعن في يزيد بن معاوية طُعن في بقية خلفاء بني أمية لم يُستثن منهم خليفة واحد، اللهم إلا إذا كان عمر بن عبد العزيز، وهذا لم يُطعن به لصلاحه كما يتصوّر بعضهم، وإنما لقصر مدة خلافته التي لم تزد على السنتين (٩٩ ـ ١٠١ هـ)،

ولأن الذين يُوجّهون الطعون أرادوا أن يظهروا بالعدل والإنصاف إذا استثنوا بعض الخلفاء، ومع ذلك كنا نسمع بعض الهجوم من المدرسين العلمانيين على هذا الخليفة الصالح أنه أراد تطبيق الإسلام وقد نسي أنه قد مضى عليه قرن من الزمن، الأمر الذي يدل على غبائه.

وعدم ترك خليفة دون هجوم عليه لأن الطعن لم يكن موجهاً بالحقيقة إلى أشخاصٍ بأعينهم، وإنما كان القصد الهجوم على الإسلام من خلال الطعن بالخلفاء والمسؤولين عن الدولة لذا جاء الهجوم عاماً، وإن كان يختلف من خليفةٍ إلى آخر حسبما يجدون من ثغراتٍ أو بالأصح حيث يجدون منفذاً يلجون منه وينفثون في داخله سمومهم. فالخليفة الذي تقع في عهده أحداث يمكن الدسّ من خلالها يأخذون بالافتراء والكذب فمثلاً: موت الحسن بن علي بن أبي طالب، وموت الأشتر النخعي، ومقتل حجر بن عدي، وبيعة خليفة قبل موت الخليفة القائم خوفاً من الأحداث كل هذه الوقائع يتهمون فيها معاوية بن أبي سفيان، ويُهاجمونه أعنف الهجوم وينسون صحبته لرسول الله ﷺ، والفتوحات في عهده، وحسن إدارته، وحكمته.

ويزيد بن معاوية طعنوا فيه من خلال حادثتي كربلاء، ووقعة الحرّة.

وهشام بن عبد الملك من خلال ثورة زيد بن علي بن

الحسين بن علي بن أبي طالب، وابنه يحيى بن زيد.

ومن لم تقع في عهده أحداث يُهاجمونه من خلال ولاته كما هي حال عبد الملك بن مروان الذي يسلّطون الأضواء في عهده على شدّة الحجاج بن يوسف الثقفي.

وإذا مات خليفة صغيراً اتهموا من بعده بقتله، حيث اتهموا يزيد بن عبد الملك بدس السم لعمر بن عبد العزيز وإذا كان الخليفة ضعيفاً لم يهاجموه على ضعفه بل اتهموه بالخنا والمجون، وتأثير النساء عليه، والجري وراء شهواته، كالوليد ابن يزيد.

وإذا مات قائد ولو بلغ من السن عتياً اتهموا الخليفة به، فسليمان بن عبد الملك رثى لحال موسى بن نصير قائد الفتح في الأندلس الذي يلقى بنفسه في المعارك، وقد زادت سنه على الثمانين، فأراد إكرامه والإفادة من خبراته فاستقدمه إلى دمشق، واصطحبه معه لأداء فريضة الحج فوافاه أجله في المدينة فاتهموا الخليفة بالخلاص منه.

حتى لم ينج منهم معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية الذي تنازل عن الخلافة وجعلها شورى للمسلمين كما يجب أن يفعله كل مسلم، فوجهوا إليه سهام الضعف وعدم القدرة. ووجدوا أن مروان بن محمد قد جاء إلى دمشق وأنهى موضوع الصراع على السلطة، وتسلّم الخلافة، وأخذ الأمر بالحزم، ولكن حطّت به الأيام للضعف الذي كانت قد وصلت إليه

دولته وقوة خصمها الجديد اليانع العنيد فهاجموه ولقوته أطلقوا عليه الحمار. فالضعيف جبان، والقوي حمار، ومن مات في عهدهم كانوا هم ملك الموت والذين يُوزّعون بطاقات الموت و. . . .

وعبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي عدّوه ثائراً، ولم يجدوا ثغرةً في سلوكه فاتهموه بالبخل.

بنى عبد الملك فكان عند الأعداء بناء سياسياً لتحويل المسلمين من الحج إلى مكة إلى الحج إلى القدس، وعدّوا ما جاء من أحاديث صحيحة لرسول الله ﷺ، في شدّ الرحال إلى المسجد الأقصى موضوعة ونسبوها للزهري الذي وضعها تزلّفاً لبني مروان.

وبنى الوليد بن عبد الملك فعدّوا ذلك تبذيراً وإسرافاً.

وبهذا لم يسلم أحد من أقلام الحاقدين وألسنة المغرضين وهذا أمر طبيعي ما داموا أعداءً للإسلام، ولكن الغريب كل الغرابة أن يكون ما تُدوّنه أقلامهم ثقافةً لأجيالنا الذين يريدون أن يُواجهونهم فكرياً. وأن تكون مواطن فخر أحفادنا في التاريخ من تدوين أعدائهم. وأن يكون الجيل الثاني لتطبيق الإسلام أول من تخلّى عنه بل إن كثيراً من الجيل الأول قد شهد هذا الابتعاد عنه ووافق عليه.

علينا أن ننظر في هذه الوقائع والأحداث، ونرى رواتها

ومـدى الثقة بهم، ونُفسّرهـا بعد ذلـك تفسيراً إيمـانيـاً حسب منطلقات الأمة ونرى ما يتفق مع هـذه المنطلقـات وما يتبـاين معها، فالأحداث ليست سوى ترجمة للمنطلقات وتطبيقاً لها.

الدولة العباسية:

إن الذين شنّوا هجـماتهم على الـدولة الأمـوية هم أنفسهم الـذين طعنوا في خلفـاء بني العباس، ولا شـكّ أن الهجوم لا **يكون على الضعفاء الذين لا يأبه بهم أحد** وإنما عـلى الأقويـاء الـذين يؤثـرون في المجتمعـات، ويكـونـوا أنمـوذجـاً لتـطبيق منطلقات الأمة، ومن هنا كان الهجوم على خلفاء الدور الأول من العهد العباسي.

لقد خرقوا ستر هارون الرشيد ووصلوا إلى المكان الذي لا تصل إليه إلا زوجاته، ونظروا في موضع سره الذي لا يعلمـه إلا الله وزوجاته، واختلقوا قصصاً فاضحةً واضحة الكذب، وربما كانت هي السبب في اكتشـاف أكاذيب الـذين عملوا في تدوين التاريخ من أعداء الإسلام لما فيها من وضعٍ مكشوفٍ وخاصةً فيما يتعلق بأبي نواس الذي لم يره الرشيد طول حيـاته مـع أن قصصه معـه هي الشائعـة وتكاد تكـون من المسلمات بها.

وإذا كان هؤلاء قد توصلوا إلى داخل بيت الرشيد فرأوا ما لم يعلمه إلا الله وأذاعوه على الناس لكنهم في الوقت نفسه قد عمـوا عما يـراه الناس جميعـاً وأخفـوه، لقـد أعـماهم الله عن

جهاده، وعن حجه، وعن بكائه من خشية الله عندما يُذكّره أهل التقوى بالله. . . . وسكتوا عن هذا. . . . ليفضح الله أمرهم.

ولم يكن هارون الرشيد ضحيتهم الوحيدة بل لم تترك ألسنتهم أحداً من العباسيين كما لم تبتعد عن أحدٍ من أبناء عمومتهم الأمويين السابقين لهم في السلطة، حتى ليتضح أن الهدف لم يكن الخلفاء وإنما كان الإسلام الذي يُمثّله الخلفاء.

الشعراء

كـان الشاعـر سجل ذاتـه، وسجـل مُعـاصريـه، وسجـل عصره، ولـو كان كـل شـاعـرٍ قـد بـرع في فنٍ، وَبـه عُـرف واشتهر، وبذلك تباين الشعراء واختلفوا، كما اختلفوا في قول الصـدق، وحسن السريـرة فمنهم المسلم الـذي نـذر حيـاتـه للدفـاع عن الإسـلام والـردّ عـلى المشركـين وذلـك في أيـام الإسـلام الأولى كحسـان بن ثـابت، وعبـد الله بن رواحـة، وكعب بن مالك و. . . ومنهم من أخذ يُنافح في تلك المرحلة عن الجاهلية، وأوثانها، وسدنتها، وسادتها الكفار. وفي عصر بني أميـة أخـذ بعض الشعـراء اتجـاهـات معينـةٍ، وأكـثرهم يمـدحـون من يُحبّـون منهم محبّـة وصـدقـاً، ومنهم نـوالاً واستجـداء، ويبدو أن هـذا الصنف هو الـذي يظهـر في كـل عصرٍ وسيبقى ما دام التزلّف قائماً وما دام حب المال والمنصب مـوجـوداً، **كما أن هناك الحكيم، والهجّاء،** ومن انصرف إلى الغزل يرضي بذلك نفسـه وهواه لا يبغي وراءهمـا شيئاً ومنهم من يسير مع المجاهدين تفيض نفسه حباً بقتال الطغاة ويطلب نيل الشهادة فيدوّن مبتغاه.

غير أن هناك صنفاً آخر من الشعراء، وهو الذي لا يستطيع أن يُجاهر بما يؤمن به إن كان يُخالف عقيدة المجتمع فما ينظمه من شعرٍ يبقى سرّاً حتى ينكشف أمره بعد حينٍ سواء أكان عاجلاً في حياته فينال عقابه، أم آجلاً بعد وفاته فيُعرف ما كان عليه. وقد لا يستطيع الشاعر أيضاً أن يُظهر ما ينظمه من شعرٍ عندما يسبح في خياله بعيداً يتتبع عورات الناس أو يُشبب في نساء المجتمع الفاضلات، فهو يسير وراء شيطان شعره، ويتكلّم وينظم من الشعر ما شاء له هواه، ولكن يبقى هذا سراً حتى ينكشف أمره بعد حينٍ، وهذا الصنف من هؤلاء الشعراء هو الذي أعنيه وأقصده لا سواه.

إن وجود شاعرٍ واحدٍ أو أكثر في بيئةٍ معينةٍ من هذا النوع لا يعني فساد هذه البيئة بل ربما الشاعر نفسه لم يكن سيئاً ما دام الكلام لم يخرج إلى حيز التنفيذ، وإنما بقي مكتوباً على الورق، ومكتوماً في النفس، فما هو إلا ارتسام في الخيال، بل لو كان الشاعر فاسداً إلا أن الأمر سري فلا فاحشة تشيع **ولا حرمات تنتهك، وهو في وسط مجتمعٍ واسعٍ لا يُعادل شيئاً ولا يدلّ على طبيعة المجتمع وصلاحه أو فساده، فالبيئة لا يُحكم عليها من خلال فردٍ واحدٍ.**

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ لو أن شاعراً لمح ابنة الخليفة أو رآها فهام بها، وأخذ ينظم الشعر بها، ويسبح في خياله بلقاءات معها، وهي لا تدري، فهل نحكم من خلال شعره بعد زمنٍ على

أخلاقها ونتهمها بالسوء وأنه كـانت لقاءات بينهما وأنها كانت تُبـادله العـواطف نفسها، وتسعى عـلى الاجتماع بـه، وتحبك الحيل في سبيل ذلـك؟، وأن الاجتماعـات كانت تتم ليـلاً في غرفة دار الخلافة، أو في الحرم حيث يستحيل ذلك.

أقـول يستحيل لأن الحـرم مكان مُقـدّس لا يُـسمـح بـأن يحدث فيه مثل هذا في أكثر الأوقات تحرّراً من القيم الدينيـة، وربمـا قُتل من حـاول العبث فيه بـأيدي من فيـه من الحجاج والمعتمرين، وهو لا يخلو في وقت من الأوقات من أعدادٍ كثيرة من المسلمـين يُؤدّون فيه بعض المنـاسك سـواء أكان ذلـك في الموسم أم في غيره، وإن كان في الموسم أكثر بكثيرٍ، فما بالـك في عصر الإسلام حيث كانت الحماسة للعقيـدة أكثر، والتقيـد بقيم الإسلام، واحترام الآداب أكبر.

وهذا شأن عمَر بن أبي ربيعة المخـزومي الذي حُكم عـلى المجتمع الإسلامي من خـلال شعره الـذي لم يتعدّ أن يكـون شعراً خيالياً نسجه في خياله ونظمه شعراً، ووُجد بعد وفاته، وربما اطلع عليه في حياته بعض خلّانه فشـاع الشعر وانتشر، وحكموا على صحـة ما جـاء فيـه عـلى الـرغم من أن أبسط العقـول تتنبه إلى أنـه خيال لم يتعـدّ ذلـك، ولكن المغـرضـين يريدون غير ذلك، يريدون التهديم والطعن في الحكم القـائم يومذاك وتصويره أنه بعيد عن الإسـلام كل البعـد، وبعدهـا يريدون الطعن في الإسلام عـلى أنه غـير صالـح للحكم إذ لم

تلبث أن انهارت دعائمه، وابتعد أهله عن المثاليات التي جاء بها، واتجه الناس أول ما اتجهوا إلى اللهو والعبث في مدينة رسول الله ﷺ، وفي مكة المكرمة، بل وفي الحرم أكثر الأماكن قدسيةً.

ومما يظهر أن الأمر خيالي تماماً:

١ ـ ما جاء في ديوان عمر بن أبي ربيعة نفسه أثناء الكلام عن مناسبة نظم بعض القصائد، فقد ورد: أن ابن أبي عتيق قد وصف لعمر بن أبي ربيعة عقل ابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية وأدبها وجمالها فشُغف بها وفُتن دون أن يراها، ونظم فيها القصائد الطوال.

٢ ـ إن اللواتي ذكرهن في شعره هنّ كلّ السيدات المعروفات في مجتمعه ومن أشهرهن: سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله التي أُمّها أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وسعدى بنت عبد الرحمن ابن عوف، ولبابة بنت عبد الله بن العباس، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن عبد العزيز، ورملة بنت مروان بن الحكم، وأم محمد بنت مروان بن الحكم، وفاطمة بنت محمد بن الأشعث، سكينة بنت خالد بن مصعب، كلثم بنت سعد المخزومية، الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر، وهي زوج سهيل بن عبد العزيز بن مروان، ونُعم الجمحية، ورملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية، وزينب

بنت موسى الجمحية.

فهل كان على صلةٍ بهنّ كلهنّ؟ ويعني إن كان ذلك أن المجتمع كله عابث فاسد، وقد زال كل أثرٍ للإيمان منه، وهذا ما يريد أن يتوصل إليه أعداء الإسلام لذلك يُروّجون هذا الشعر ويُؤكّدون عليه. وما هو في الواقع إلا شيطان شاعرٍ يسبح في الخيال.

٣ ـ كان بعض من ذكرهنّ بعيداتٍ عنه كل البعد، وربما بعضهنّ لم يرهنّ في حياته، فقد كانت سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة تعيشان في العراق مع زوجهما مصعب بن الزبير، وكانت فاطمة بنت عبد الملك تعيش في الشام، وكانت رملة بنت مروان تعيش في مصر والشام، وكانت أم محمدٍ بنت مروان تعيش في مصر، وربما سمع عن إحداهن فنظم الشعر بها ـ كما قلنا ـ.

٤ ـ مجيء أخت الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الموسم وحدها، وهي رملة لتلتقي بعمر بن أبي ربيعة. متى كانت الأعراف تسمح أن تسير أخت الخليفة وحدها؟ ومتى كان يحدث هذا؟

متى وجدت امرأة في تاريخ البشرية تنطلق من دمشق إلى مكة وحدها تنطلق مسافة ألفي كيلو متر في الفيافي والقفار؟.

ومن المعلوم أن المرأة المسلمة لا يصحّ أن تحجّ دون محرم،

ووجود المحرم شرط أساسي للحج أو العمرة، ويُعدّ عدم وجوده عدم استطاعة الحج، وتعتبر المرأة غير مكلّفةٍ بأداء الفريضة حينذاك.

٥ ـ البيت الحرام أكثر بقاع الأرض قدسيةً فهل يمكن للمسلمين أن يتخذوه مكاناً للهو والعبث؟ وهل يمكن للمسلمين أن يروا رجلاً أو امرأةً يعبث هناك ويسكتون عنه، وخاصةً إن كان ذلك العبث من هذا النوع الرخيص؟، وإنه ليلفت الانتباه كثيراً لأنه مع سيداتٍ معروفاتٍ تتجه نحوهنّ الأنظار.

٦ ـ إن آباء هذه السيدات التي يُعبث بهن ويعبثن هم من ذؤابة القوم، فهل يقبلوا أن تُداس كرامتهم، وهم يسمعون، وتنتهك حرماتهم وهم ينظرون، وبيدهم الأمر فمنهم الخليفة، ومنهم الوالي، ومنهم السيد المطاع، ومنهم جليل القدر المحترم بين الناس جميعاً.

وهذا كله يدلّ على أن عمر بن أبي ربيعة كان يتغزل بهذه النساء بالخيال، وينظم الشعر فيهن من السماع، ولم يُعرف هذا الشعر إلا بعد مدةٍ ولا ندري لعله أضيف إليه الكثير من الشعر المنحول؟ ولو كان عُرف هذا الشعر في أيام عمر بن أبي ربيعة لنال جزاءه، مباشرةً من الخليفة الذي هتك عرضه أو من السادة الذين هتك سترهم و. . . .

وجاء المغرضون من الرافضة ووجدوا فيه ضالتهم إذا

وجّهـوا سهامهم عـلى حكم بني أميـة، واتهمـوهم بـالإسـاءة والإفسـاد حتى قالـوا إن الغزل والغنـاء قـد دخـل في أيـامهم مدينة رسول الله ﷺ، بل تجاوز ذلك فوصل إلى العبث داخل بيت الله الحرام من عمر بن أبي ربيعـة وبعض نساء قـريش، وادّعوا أن بني أمية قد سكتوا على ذلك، وغضّوا الطرف عنـه في ذلك، وقبل المجتمع هذا الانفتاح لتشجيع الحكام له، وما قصـد الرافضـة بني أمية وإنمـا المجتمـع الإسـلامي، والحكم بالدرجة الأولى، ثم من وراء ذلك كله الإسلام.

والغـريب أن المسلمين لم يـردوا على ذلـك بـل يبـدو أنهم قبلوه، وغدوا يتناقلونه، ثم أصبحوا يـدرسونـه، ويعدّون أن المجتمع الإسلامي قد أخذ يبتعـد عن القيم التي يُمليها عليـه دينه، ويطعنون في بني أمية ولم يدروا أنهم يُهاجمـون الإسلام. ولا تزال المدارس والجامعات في العالم الإسلامي تدرس هذا، ولم يحاول النقاد التعـرّض لهذا لأنهم لم ينتبهـوا إلى المنطلقـات الإسلامية بل هذا لا يهمهم، وإن الذين يُهمّهم الأمر إنما هم الـدعاة من أسـاتذة الأدب ولكنهم لم يصلوا إلى هـذا الجـانب حيث لا يزالون يُردّدون ما تعلموه.

وقد آن الوقت لتُجلّى فيه الحقيقة ويجب على كل مسلمٍ أن يسدّ الثغرة التي يقف عليهـا، لتأخـذ الصحوة الفعليـة مكانها وتتخطّى الصحوة الكلامية.

اقوال ماثورة

قـد يُرسـل أحد الخلفـاء أو الولاة رسـالـةً فيهـا حِكَمٌ إلى بعض القـادة أو الأمراء بمنـاسبةٍ من المنـاسبـات أو ظـرفٍ من الـظروف، وغالبـاً ما تُستعمـل فيهـا حِكَمٌ، وتـذهب مثـلاً، وتُصبح أقوالاً مأثورة، ولشيوع هذه الحكم وتداولها على ألسنة الناس يستغلّها المغرضون ويضعون لها مناسباتٍ قيلت نتيجـةً لها يخدمـون فيها أغـراضهم وينفثون سمـومهم، وما المنـاسبة التي قيلت من أجلهـا بصحيحةٍ، وقـد يكـون طـرف منهـا صحيحاً والطرف الآخر خطأً. ولما أصبح القول مأثـوراً فإنـه تشيـع المناسبـة التي اختُرعت لـه، وتعمّ أيضاً، فتكـون كلمة حقٍّ وُضعت لهـا مناسبـة بـاطلة، ويستنتـج النـاس من هـذه المناسبة موضوعات يظنّون أنها حقّ، وهي باطلة، فما بُني على باطلٍ فهو باطل، ولأعطي مثالاً على ذلك:

كان الجراح بن عبد الله الحكمي والياً لعمر بن عبد العزيز على خراسـان. ويوجـد هناك بعض المجـوس الذين يـدفعون الجزية للخلافة الإسلامية لأنهم قد أُلحقوا بـأهل الكتـاب كما هو معلوم، وكانت الجـزية تُؤخـذ بعد مـرور عامٍ من دخـول

المنطقة في ظلّ الحكم الإسلامي، وكلما استدار العام استحقّ دفع الجزية، أي تُؤخذ عن العام المنصرم، وقبل أن يحول الحول بأيامٍ معدودةٍ لا تزيد على الأسبوع، أسلمت مجموعة من هؤلاء المجوس، فرُفعت عنهم الجزية بعدها، غير أنه من الواجب عليهم دفع جزية العام الذي انتهى، فهو حق عليهم إذ كانوا فيه مجوساً، ولكنهم رفضوا الدفع وقالوا إننا أصبحنا مسلمين ويسقط كل ما يتعلق بالجزية، وتحيّر الوالي ماذا يفعل؟ فإن تركهم وأعفاهم عُدّ مُقصّراً في حقوق الخلافة، وإن طالبهم وأبوا وأجبرهم خشي أن يُعدّ مُنفّراً من الإسلام، ويُسأل يوم القيامة عما فعل، وليس بعيداً أن يُسأل من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز الرجل الورع التقي، فقرّر أن يدفع مقدار الجزية من ماله الخاص إلى بيت المال لكنه لم يلبث أن شعر أن المبلغ كبير ولا طاقة له به، لذا رأى أنه لا بدّ من استشارة ولي الأمر. فسأله، فكان الجواب: «إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً» أي الحمد لله الذي هدى هذه المجموعة، وهذا ما نبغي فنحن دعاة وقد حقّقنا ما نعمل له، ولسنا جُباةً نُطالب الناس ونُلاحقهم ليدفعوا وإنما نُتابعهم ليهتدوا ولنُخرجهم مما هم فيه من عبادة العبيد إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الإسلام وسماحته أي ليكن غضّ النظر في مثل هذه الحالة عن حقوق الخلافة من الناحية المالية. والأصل الإسلامي أن يدفع هؤلاء المجوس الجزية عن العام الفائت، ولكن الأمثل والأفضل أن

يُعفى عنهم ويُصفح ويُتساهل تشجيعاً للآخرين على الدخول في الإسلام، وهذا ما قصده الخليفة عمر بن عبد العزيز في رسالته: «إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً». وجد الخصوم في هذه العبارة منفذاً يمكنهم الطعن من خلاله.

زعم الأعداء أن بني أمية قد زادوا في إسرافهم حتى نفد ما في بيت المال فرأوا أن يُبقوا الجزية على من أسلم من غير العرب، إذ قلّت موارد بيت المال لكثرة الذين دخلوا في الإسلام، حتى أن بعضهم كان يتهرّب من الجزية بالدخول في الإسلام حتى جاء الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز وأبطل هذه المخالفة الشرعية، ولكن لم تلبث أن عادت بعده، بعد أن قضت عليه إذ لم يرق ذلك لبني عمومته فدسوا له السمّ وقتلوه. ولما كانت هذه العبارة: «إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً» عبارة جميلة المعنى، جميلة الوقع لذا فقد حُفظت، ورُدّدت، وأخذ المعنى الذي طرحه الأعداء. وهذا افتراء وبهتان عظيم.

الجزية على أهل الكتاب ومن يتبعهم من المجوس الذين يعيشون في عهد المسلمين وذمتهم شرع لا يجرؤ أحد على مخالفته، ورفع الجزية عمن أسلم شرع **لا يجرؤ** أحد على عصيانه. فكيف يُخالفه ويتعدّى حدود الله خليفة يقول: إنه قائم لتطبيق شرع الله وإقامة حدوده، والرعية تُراقبه، وتحسب عليه كل مُخالفة. مع العلم أن ما جاء من الفتوح من

غنائم لا تُقدّر حتى كانوا يعجزون عن عدّها. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فهل العقيدة أمر سهل يمكن تغييرها بيسر؟ ومن يدخل في الإسلام تصبح عليه التزامات أكبر بكثير مما لو بقي على عقيدته إذ عليه مقابل ذلك الزكاة، وعليه الانتظام في صفوف المجاهدين. فأي إنسانٍ يهرب من دفع مبلغ من المال إلى جهةٍ أخرى يُغيّر فيها عقيدته، ويدفع فيها أكثر مما كان يجب عليه أن يدفعه، ويُعرّض نفسه للقتل، إن ارتدّ قُتل، وإن خرج للجهاد عرّض نفسه، وهو يعدّ ذلك مجازفةً لأنه لا يُقاتل عن عقيدةٍ حيث لم يدخل في الإسلام عن إيمانٍ وإنما هرباً من الجزية. إن مجرد إعمال العقل يُؤدي إلى تكذيب هذا الادّعاء. غير أن الخلفيات لدى بعض الناس عن بني أمية سيئةً مما عمل الأعداء على تثبيت ذلك من مخالفةٍ للإسلام، وتعصّبٍ للعرب، وتبذيرٍ للأموال، وتعدّياتهم على بيت المال ثم يُضاف عدم التفكير وعدم إعمال العقل مما يجعل الأمر مقبولاً مع وجود مثل هذه العبارات التي غدت أقوالاً مأثورة، فيقبل الأمر ببساطةٍ دون مناقشةٍ ويُردّد حتى يشيع ويظنّه البقية حقيقةً واقعةً.

إن كل تفسير لأية مشكلةٍ من المشكلات يُعدّ مجانباً للحقّ ما لم ينبعث من منطلقات الأمة الأساسية التي تحملها، وتُنادي بها، وتدعو إليها. والأمة الإسلامية انطلقت تحمل الإسلام، وتتبنّاه، وتُطبّقه على كل جانبٍ من جوانب حياتها وذلك في مراحل انطلاقتها الأولى، في القرنين الأولين أو

الثلاثة التي أخبر عنهم رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الـذين يلونهم، ثم الـذين يلونهم» قـال عمـران بن حصـين راوي الحديث: فلا أدري أقال بعد قرنه مـرتين أو ثـلاثاً «ثم يكـون بعدهم قـوم يشهدون ولا يُستشهـدون، ويحلفـون ولا يُستحلفـون»، وإن اختلفت درجة الخـيرية بـاختـلاف درجـة التطبيق والتمثّل الإسلامي.

فالتاريخ الإسلامي في قرونه الأولى لا يمكن تعليل أحداثه أو تحليـل وقائعـه دون الرجـوع إلى العـامـل الإيمـاني والمنهج الإسـلامي في أي جانبٍ من جـوانب الحياة. فـاختيار الـولاة وتعيين القادة لم يكن ليتمّ إلا على أساسٍ إسـلاميٍ، وتطبيق المنهـج الإسلامي، وهـذا هو المنـطلق الأسـاسي في التـاريـخ الإسلامي.

وأما الروايات التي تروي الخبر أو تذكـر المناسبـة لقولٍ أو حكمـة فلا بـدّ من النظر فيهـا ودراسة رواتهـا وتـطبيق منهـج المحـدثين في دراسـة المتن والسند لمعـرفة الخـبر الصحيـح من العليـل، ومعرفـة الموضـوع الذي يمكنـه أن يشير إلى أسبـاب وضعه والجهة التي انتهجت طريق الوضع.

والله نسـأل السلامـة، وسداد الخـطا، والصدق في القـول والعمـل، ونسألـه الـرعـايـة والـولايـة فهـو نعم المـولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

الفهرس